الفصل السادس عشر

العباسيون

(تابع ما قبله)

١٥٨ — ١٧٠ هـ (٧٧٥ — ٧٨٦ م)

المهدى والهادى

خلافة المهدى — حكمه الفخم — إنسانيته — الزنادقة — الحرب مع الرومان — إيرينى تدفع الجزية — وفاة المهدى — خلافة الهادى — انفصال المغرب الأقصى — وفاة الهادى

محمد المهدى
١٥٨–١٦٩هـ
٧٧٥–٧٨٥م

خلف « محمد » أباه المنصور ولقب « بالمهدى » ، وتنتسب أمه[1] إلى أحد ملوك حمير[2] اليمانيين ؛ وكانت سياسته تختلف عن سياسة أبيه كل الاختلاف. إذ كان محسناً كريماً بطبعه ، وقد سارع عند اعتلائه عرش الخلافة إلى رتق الفتق وإصلاح أعمال الشدة والإرهاق التى وقعت فى عهد أبيه : فاستفتح حكمه بفك سراح المسجونين عدا القتلة والمتهمين بجرائم خطيرة ، كما أطلق الحسن بن إبراهيم ، وأغدق عليه المنح والعطايا ، وأعاد للمدن المقدسة الامتيازات التى كان أبوه قد عطلها ؛ وسمح بإرسال الإعانات التى كانت ترسلها مصر إلى بلاد الحرمين الشريفين ، ورد إلى آل البيت أملاكهم . وكان من عادة « المنصور » أن يفرض الغرم الباهظ من حين لآخر على موظفى الدولة الذين كان يعزلهم بتهمة الاختلاس أو اغتصاب الأموال ، وكان يحتفظ بها فى خزينة خاصة تسمى « ببيت مال المظالم » مكتوباً عليها أسماء الأشخاص الذين صودرت منهم ، فأعادها المهدى

(١) واسمها « أم موسى » .

(٢) من ولد ذى رعين من ملوك حمير . (المعرب)

إلى أصحابها أو لورثتهم[١] . وكان قد نزل فى أثناء حملتـه على الروم بقصر « مسلمة » ، فتذكر إخلاص ذلك القـائد المشهور وعظيم وفائه لجده « محمد » فطلب أولاده وأجازهم بعشرين ألف دينار ، كما وهبهم الإقطاع والضياع . وفى أثناء حجه إلى مكة عام ١٦٠ ﻫ أحاط نفسه بضروب الأبهة والفخامة ووزع حوالى ٣٠ مليون درهم على أهل الحجاز ، و ١٥٠ ألف ثوب على أهالى مكة وحدها ، وأعاد بناء المسجد الحرام وجمله ووسع المدارس والجوامع فى جميع المدن المشهورة ، كما شيد جوامع جديدة فى شتى المدن والحواضر ؛ وانتخب بمهارة تبز مهارة أبيه ٥٠٠ رجل من أبناء الأنصار ، وألف منهم فرقة الحرس الخاصة[٢] ورتب المخصصات للمجذومين والمسجونين . وتقول لنا الرواية إن السفاح كان قد شيد عدة منازل فى طريق مكة من القادسية حتى «زبالة» ، فأمر المهدى بتعبيد ١٥٨ـ١٧٠ﻫ ذلك الطريق وتوسيعه ، وزاد عدد المنازل وأثثهـا ، وحفر الآبار والخزانات على طول الطريق إلى المدن المقدسة ؛ كذلك أقام الحراس لحماية الحجيج والمسافرين . وكان أحد أبناء « مروان الثانى » قد حاول شق عصا الطاعة فى الشام ، فظفر به وأمر بحبسه ردحاً من الزمن ، ولـكنه ما عتم أن أطلق سراحه ومنحه مرتباً كافياً . ويقال إن « مزينة » امرأة مروان وفدت على قصر الخلافة تشكو رقة حالها فأفردت لها « الخيزران » جناحاً خاصا فى القصر تنم فيه بالقرب منها دون أن تفرق بينهـا و بين نساء بنى هاشم ، وكان للخيزران نفوذ واسع على زوجها ولهذا كان بهو استقبالها مزدحماً دائماً بالعظماء وطلاب الوظائف وأصحاب الحوائج والمأثور عن « المهدى » أنه أقصى « عيسى » ابن أخى السفاح عن ولاية العهـد وجعلها لولديه من « الخيزران » موسى وهرون بالتعاقب .

(١) يقال إن المنصور أوصى المهدى برد هذه الأموال لأصحابها لـكى يكتسب بهذا العمل قلوب الرعية .

(٢) لو احتفظ خلفاء المهدى بهذه القوة العربية لما عظم شأن فرقة الحرس التركى ، بيد أن سياسة المنصور التى يظهر أنها أثرت فى الخلفاء الذين أعقبوه كانت تدور حول إضعاف شأن العرب الذين كانوا يعدون أنفسهم زهرة فرسان المسلمين .

وفى أيامه ثار «هاشم بن حكيم» الملقب بالنبى المقنع ، وكانت خراسان تعتبر دائماً مرتعاً خصيباً لشتى الطوائف والمذاهب ، وكانت تجيش خاصة فى تلك الأثناء بمبدأ جديد يبشر به ذلك الدعى ، وهو رجل ضئيل الحجم كريه المنظر ، ولكى يخفى قبح شكله كان يتقنع دائماً بقناع ذهبى ، ولهذا سمى بالمقنع ، ومن تعاليمه أن روح الله تحل من حين لآخر فى أحد عباده المصطفين ، وأنها حلت الآن فى شخصه كما حلت من قبل فى آدم ونوح وأبى مسلم الخراسانى ، وهو يذهب أيضاً إلى أن الديانة هى الإيمان فحسب ، وكانت تعاليمه الأخرى إباحية تدعو إلى التحرر من القيود الأخلاقية فاستهوى جمهوراً كبيراً من الناس حتى عظم شأنه ، فبعث إليه الخليفة بجيش جرار شتت شمل أتباعه بعد أن فتك به .

المقنع
١٥٨–١٦١هـ
٧٧٥–٧٨٦م

الزنادقة

وقد كان أصحاب المقنع يلبسون الملابس البيضاء ولهذا سموا « بالمبيضة » ، كما أطلق على فرقة جديدة أخرى فى «جورجان» شرقى بحر قزوين اسم « المحمرة » لارتدائهم الملابس الحمراء ، وكانوا يدينون بمبادئ إباحية مفرطة ، وسببوا متاعب جمة للدولة غير أن حركتهم قمعت أخيراً دون صعوبة تذكر . ويظهر أنه كان قد شاع فى ذلك الحين مبدأ النهلستية وهو مبدأ يجمع بين المزدكية والمانوية القديمتين .

ويقول لنا المؤرخون إن « مزدك » صاحب العقيدة المسماة باسمه ظهر فى زمن « كسرى أنوشروان » فى القرن الرابع الميلادى ، وأخذ يبشر باشتراكية مطلقة لا قواعد لها ، فاستعمل ملك الفرس الحديد والنار فى سحق تلك الفئة الإلحادية دون أن يتمكن من قلع الحركة من أساسها . وفى حكم المهدى أخذت تلك المبادئ الإباحية تمتزج — قليلا أو كثيراً — بالفلسفة المانوية وتنتشر بسرعة فى خراسان ثم فى غربى إيران والعراق . ولا شك أنها كانت تبشر بالتحلل من القيود الأخلاقية ، وتعمل على إضعاف سلطة الحكام والخروج على العرف والتقاليد . كذلك كان من جملة الاتهامات التى وجهت إليهم خطف الأطفال من الأزقة والشوارع ، وسواء أكانت تلك التهمة صحيحة أم مختلقة فما لا ريب

فيه أن هؤلاء الملاحدة كانوا يستهترون بالأوضاع الاجتماعيـة والعقائد الدينية بادعائهم الطاعة العمياء لشرح المفسرين . ولقد أبدى المهدى حيال تلك الشرذمة — التى كان يعتبرها عنصراً خطراً على سلامة الدولة والأخلاق — قسوة شديدة فنكل بهم شر تنكيل من غير ما شفقة ولا رحمة .

١٥٨ـ١٧٠ هـ وفى سنة ١٦٣ هـ أغار الجيش البيزنطى على البلاد الإسلاميـة فعاث فى المدن المجاورة فساداً وتخريباً ، كما استولى على مدينـة « مرعش » فأشعل فيها النار وفتك بأهلها ؛ ولـكن ما إن اقترب منهم جيش المسلمين بقيادة «حسن بن قحطبة » حتى تقهقروا من المواقع التى سـبق أن احتلوها ، غير أن القائد العربى انتقم منهم انتقاماً شديداً فخرب بعض مدنهم بعـد أن نكل بهم شر تنكيل . وفى تلك الأثناء نشبت فتنة جديدة فى داخل البلاد استدعت حضور المهدى إلى ميدان القتال بعد أن أناب عنه ابنه موسى فى بغداد وسار هو توا عن طريق الموصل إلى مركز الحركة ، وكانت مدينـة حلب عندئذ المركز العام للجيش الإمبراطورى ، فعقد القيادة لابنه هرون الرشيد و بعث معه بعض القواد المشهورين كعيسى بن موسى ، وعبد الملك بن صالح ، وحسن بن قحطبه ، ويحى بن خالد .

ولما استولى جيش الرشـيد على مدينة « سمالا » وبعض المدن الأخرى ، قصد المهدى بيت المقـدس لأداء فريضة الحج ، وولى هرون بلاد الغرب التى كانت تشتمل وقتئذ على أرمينيا وأذر بيجان ، كما عين ثابت بن موسى وزيراً لبيت المـال ، واستوزر يحيى بن خالد . غير أن إغارة الروم حرمت البـلاد من التمتع بالهدوء والطمأنينة ، إذ لم ينقض طويل وقت حتى اجتاح جيشهم البلاد

٧٨٠ م بقيادة « ميكاميكومس » ، وأطلقوا أيديهم سلباً ونهبا ، فأسرع الرشـيد إلى صد زحفهم ، وأنزل بهم خسائر فادحة ، ثم أخذ يواصـل زحفه حتى بلغ القسطنطينية ؛ وما إن شاهـدت « إيرينى » امرأة ليون الرابع — التى كانت تحكم البلاد البيزنطية نيابة عن ابنها قسطنطين السادس ، والتى تعد المحرضة لتلك

الحرب الشعواء ، أضواء معسكر العرب تسطع على ضفاف البوسفور حتى طلبت عقد الصلح بعد أن منيت بخسارة أخرى ، فأجابها القائد العربى إلى طلبها مشترطا عليها دفع جزية سنوية كبيرة و إقامة الأدلاء والحراس ، وتجهيز الجيش بالمؤونة الكاملة فى طريق عودته .

وفى سنة ١٦٨ هـ أضرم عرب البادية نار الثورة فى الصحراء ، فنهبوا القوافل وأقلعوا عن الصلاة ، وأساءوا معاملة الحجاج ، فبعث الخليفة إليهم بقوة قمعت حركتهم فى الحال ؛ ولكن يظهر أنه عامل الثائرين بالشفقة والرحمة . ٧٧٠ـ ٧٨٦م

وفاة المهدى ٢١ محرم ١٦٩ هـ

وفى السنة التالية أراد « المهدى » أن يقوم برحلة أخرى فى الشرق فأدركته منيته فى مكان يسمى « ماسبذان » .

وتقول لنا الرواية إنه كان قد نزل فى ذلك الموقع ليصطاد ، وفيما كان يتعقب غزالا سقط من على ظهر جواده سقطة مات على أثرها فى اليوم التالى ، وعمره ٤٣ سنة بعد حكم لم تطل مدته أكثر من عشر سنوات ؛ وكان طويل القامة ، حسن تكوين الجسم . ويقال إنه استوزر فى أوائل حكمه « عبيد الله » ثم عاد واستوزر بعده « يعقوب بن داود » ، الذى تمت بمشورته معظم الأعمال الجسيمة ، ولكن الوشاة على ما يظهر ظلوا به حتى ارتاب فى إخلاص وزيره ، وأمر بزجه فى السجن السياسى المسمى « بالمطبق »[1] حيث ظل يعيش عدة سنوات إلى أن أفرج عنه هرون الرشيد .

خلافة موسى الهادى

وعند ما حضرت المهدى الوفاة كان هرون الرشيد حاضراً بجانبه فأعلن فى الحال خلافة موسى الهادى بمقتضى الوصية وحلف له يمين الطاعة كما بعث إليه بالخاتم وقضيب النبى والبردة . وكان الهادى قد ناهز الرابعة والعشرين حينما اعتلى كرسى الخلافة ، ولكن مدة حكمه لم تزد على السنتين ، وكان صعب المراس

(١) باستيل العباسيين .

قاسى القلب شرس الأخلاق ، بيد أنه كان برغم ذلك شجاعاً جواداً سخيا نشطاً محبا للعلم ، مكرماً للأدباء .

ويقول الرواة إن الهادى لم يقدر إخلاص أخيه له فاجتهد فى خلال مدة حكمه أن يغير وصية أبيه بأن يجعل ولاية العهد لابنه جعفر ، فزج يحيى بن خالد البرمكى مستشار هرون الرشيد فى السجن مع بعض أعوان أخيه المخلصين بدعوى أنهم خصومه السياسيين ، كذلك كان قد نشب خلاف بينه وبين أمه التى أرادت أن يكون لها نفس النفوذ الذى كانت تتمتع به فى عهد زوجها ، فقاوم الهادى تدخلها بكل قواه ، وأعلن للأشراف عدم رضائه على زيارتهم لهم ، وعلى هذا انقسم رجال البلاط إلى حزبين : انحاز أحدهما إلى الخليفة الشاب وابنه وانحاز الحزب الآخر إلى الرشيد والملكة الوالدة ، وقد حاول هرون الرشيد بكل الوسائل الممكنة أن يهدئ من ثورة أخيه . ولكنه عمل أخيراً بمشورة يحيى وترك البلاط حفظاً على سلامته .

وفى ذلك الحين أخذ حاكم المدينة يسوم بعض أفراد أسرة « الحسن » صنوف العذاب ، ملصقاً بهم كذباً تهمة معاقرة الخمر مما أدى إلى نشوب فتنة قام على رأسها الحسين[١] أحد أحفاد الحسن الأول ، فقتل فيها كثير من أفراد أسرته وبعض الأسرات الأخرى المشهورة ، وفر على أثرها « إدريس »[٢] ابن عم الحسين إلى تلمسان ، حيث التحق بالبربر الذين ساعدوه على تأسيس الدولة الأدريسية المشهورة التى استقلت فيما بعد ببلاد المغرب الأقصى .

٧٧٥ - ٧٨٦م وبينما كان الهادى مقيما فى بلدة « عيسى أباد » التى كانت من بغداد على مسيرة يوم واحد مرض مرضاً شديداً ، فبعث يطلب أمه « الخيزران » ، ولما

---

(١) الحسين بن على بن الحسن بن الحسن بن على بن أبى طالب .
(٢) أخو النفس الزكية .

حضرت خاطبها بقوله : « أنا هالك فى هذه الليلة وفيها يلى أخى هرون ، وقد كنت أمرتك بأشياء ونهيتك عن أخرى مما أوجبته سياسة الملك لا موجبات الشرع من برك ؛ ولم أكن بك عاقا بل كنت لك صائناً و برا واصلا » . ثم قضى نحبه واضعاً يدها على صدره فى ١٥ ربيع الأول[1] . وكان طويل القامة كأبيه وله سبعة أولاد و بنتان إحداهما أم عيسى التى تزوجت من المأمون بن هرون الرشيد .

وفاة الهادى يوم الخميس ١٥ ربيع الأول ١٧٠هـ ٧٨٦م

(١) المسعودى :